من تراث الكوثري

(٥)

لمحات النظر

في سيرة الإمام زفر

رضي الله عنه



بقلم

محمد زاهد بن الحسن الكوثري

وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٥١٢٠٨٤٧

من أنفاث الكوثري
(٥)

لمحات النظر

في سيرة الإمام زفر

رضي الله عنه

بقلم

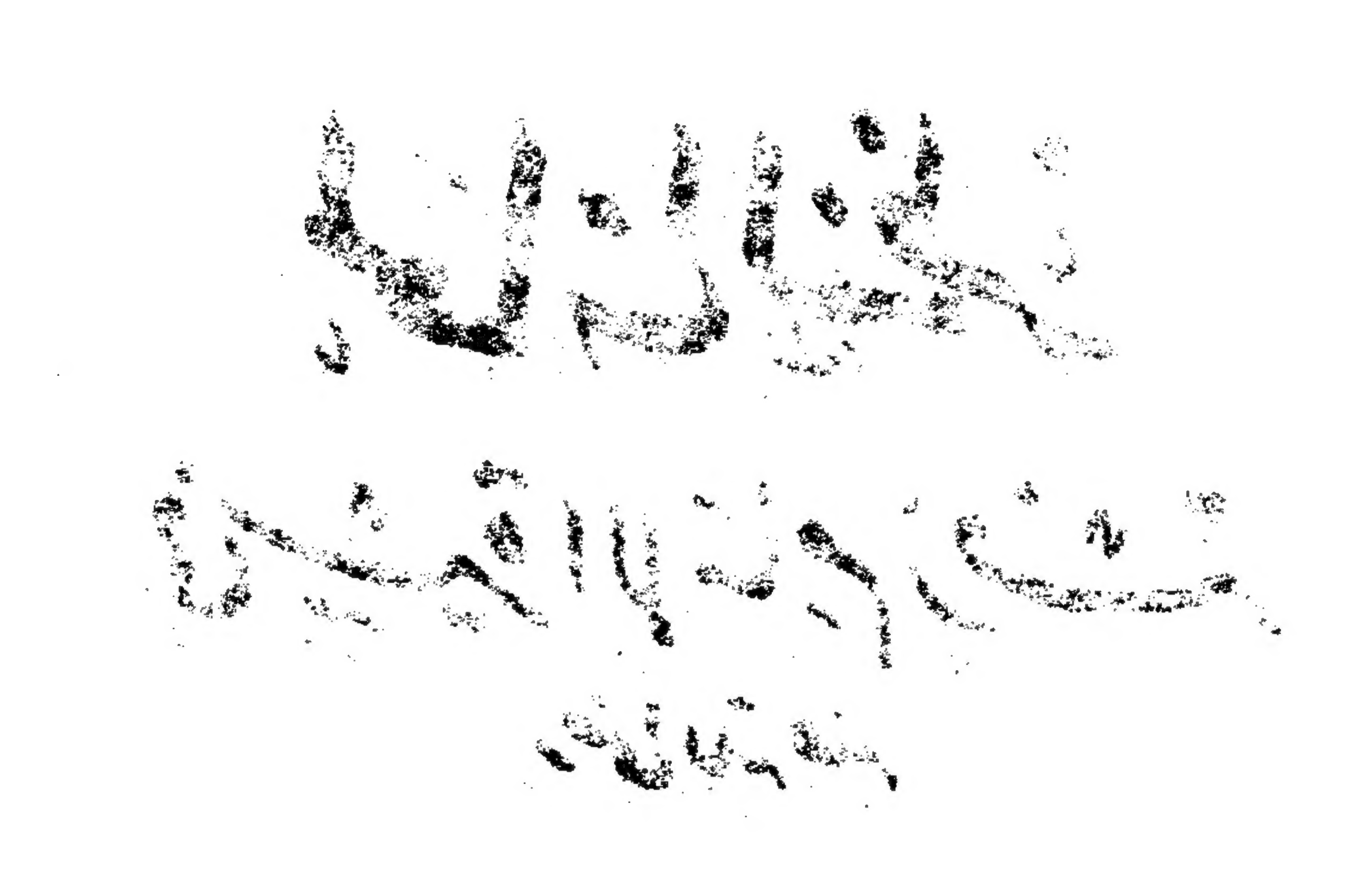
محمد زاهد بن الحسن الكوثري

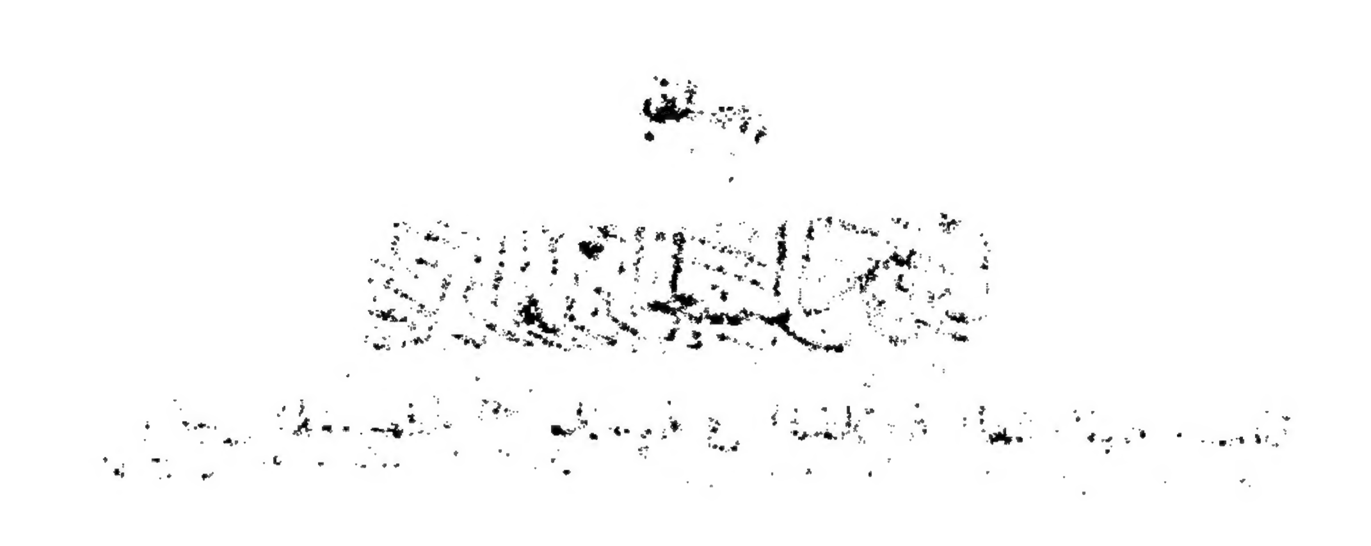
وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

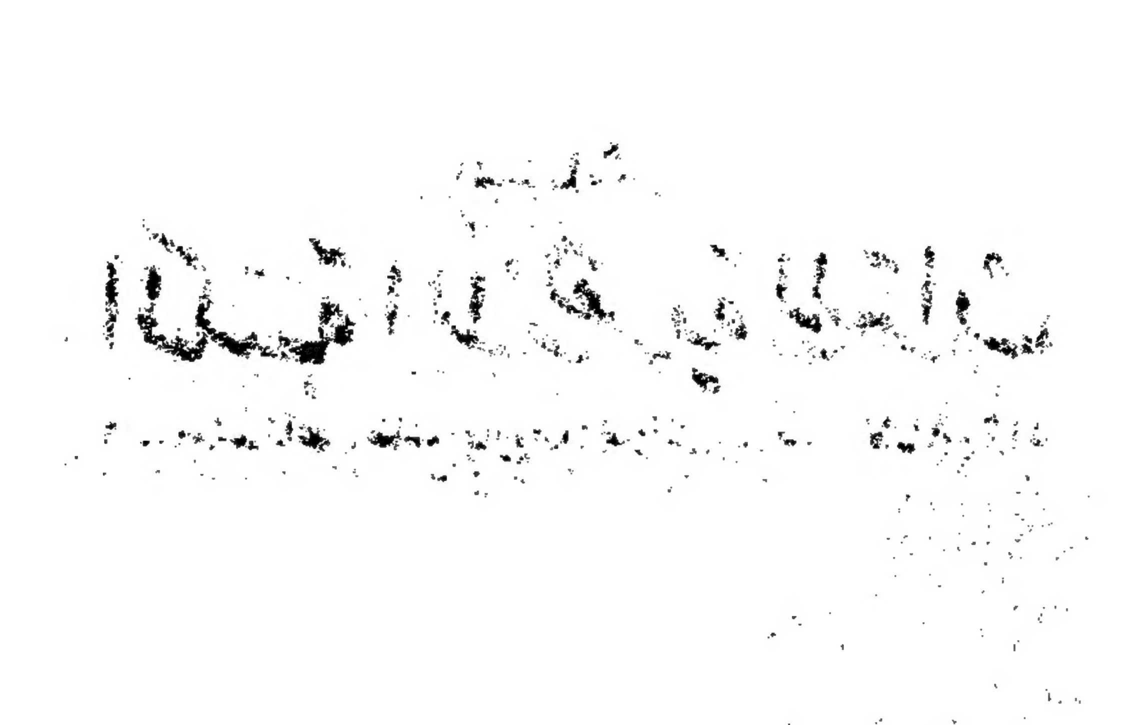
الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٥١٢٠٨٤٧







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فقه فى الدين من أراد به خيرا ، ووفقه لصالح العمل وزاده رفعة وقدرا ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد فان الامام المبجل جيلا بعد جيل ، زفر بن الهذيل رضى الله عنه من كبار أئمة الاجتهاد فى الفقه الاسلامى ومن أقدم أصحاب فقيه الملة أبى حنيفة النعمان وفاة ، وأحدهم قياسا ، وأذكاهم فؤادا ، وأدقهم تفريعا ، وأجودهم نظراً ، حتى تراه يقيم مذهبا فقهياً مقام مذهب فقهى متأصل فى نفوس أهل البصرة ، بأنظاره الدقيقة ، ومناظراته الحكيمة ، فمثل هـذا الامام الدقيق النظر ، الواسع القريحة لا يجوز اهمال أمره .

ولذا أقترح على بعض اخواننا الأعزاء الأفاضل ، أن أكتب كلمة فى ترجمة هذا الامام العظيم . وقد سبق أن ترجمت للامامين الجليلين محمد بن الحسن وأبى يوسف — رضى الله عن الجميع — فوافقت على اقتراحه وكتبت هذه الرسالة الوجيزة فى ترجمته ذاكراً فيها موجز أحوال هذا الامام الجليل وسميتها (لمحات النظر فى سيرة الامام زفر) رضى الله عنه ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ومستنهضة لهمم الاخوان فى الاستزادة من معرفة أحوال أئمة هـذا الشأن ، ومن الله التوفيق والتسديد .

***

نسب الامام زفر وميلاده

هو الامام المجتهد المطلق المقدم بين أصحاب أبى حنيفة أبو الهذيل زفر العنبرى البصرى ابن الهذيل بن (زفر بن الهذيل بن) قيس بن سليم ابن مكمل بن قيس بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجور ابن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان على ما ساق ابن خلكان نسبه



فى وفيات الأعيان تبعا للواقدى فى غير ما زدته بين قوسين تعويلا على رواية أبى بشر الدولابى كما سيأتى • وفيما ساق أبو نعيم الأصبهانى فى تاريخ أصبهان بعض مخالفة لذلك •

وقد ترجم لزفر أبو الشيخ فى (طبقات المحدثين باصبهان) — وهى محفوظة بظاهرية دمشق — وأبو نعيم فى تاريخ أصبهان — وهو مطبوع فى ليدن •

ولد الامام زفر بن الهذيل فى أصبهان سنة ١١٠ هـ فى عهد ولاية أبيه هناك ، وكانت وفاته بالبصرة سنة ١٥٨ هـ فى شهر شعبان فيما ذكره ابن خلكان فتكون وفاته قبل وفاة المنصور العباسى بأربعة أشهر لأنه توفى فى ٧ ذى الحجة من السنة ، وشذ يعقوب بن شيبة فقال توفى زفر فى أول خلافة المهدى بن المنصور المذكور ، فتابعه من تابعه لكن الجمهور على الرواية الأولى ، وأسند الصيمرى الى يعقوب ابن شيبة السدوسى أنه قال : (زفر بن الهذيل عنبرى من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث ونظر فى الرأى فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة وأوصى الى خالد بن الحارث وعبد الواحد ابن زياد وكان أبوه الهذيل يلى الأعمال ، ومات وهو والى أصبهان ، وكان أخوه صباح بن الهذيل على صدقة بن تميم ، وزفر هو زوج أخت خالد بن الحارث ومات فى أول خلافة المهدى سنة ثمان وخمسين ومائة)• وأول خلافة المهدى منتصف ذى الحجة من السنة بعد وفاة والده أبى جعفر المنصور بمكة سابع ذى الحجة فلا تكون وفاة زفر فى أول خلافة المهدى ما دامت وفاته فى شعبان من السنة كما سبق ، وسأعيد الكلام فى وفاته فى آخر هذه الرسالة ان شاء الله تعالى •

قال ابن أبى العوام حدثنى محمد بن أحمد بن حماد عن زكريا ابن خلاد الساجى ثنا الأصمعى قال داود بن يزيد المهلب[1] عن أبيه :

---

(١) وفى الأصل حاتم وهذا والد يزيد حفيد المهلب ، وصاحب الحكاية هو يزيد بن المهلب مباشرة فوهم فى الاسم أحد الرواة ، والحفيد لم يلحق —

فقال لابنه مخلد : استأذن لى على أبيك ، فاستأذن له عليه فدخل فقال : السلام عليك أيها الأمير قدرك أعظم من أن يستعان عليك أو يستعان بك وقد حملت خمسين حمالة وقد قصدتك . فقال : قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها . فقال زفر : والله لا أقبل منها شيئا . فقال له يزيد ولم ذلك ؟ قال انى بذلت لك من وجهى أكثر مما بذلت لى من مالك . فخرج ولم يقبل منه شيئا . قال ابن أبى العوام : قال أبو بشر (الدولابى) : زفر بن الهذيل هذا هو جد زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبى حنيفة أهـ) . والمهالبة فى عهد الدولة الأموية كانوا كالبرامكة فى الدولة العباسية فى الجود وعلو المنزلة ، وحال يزيد بن المهلب فى الجود فى تاريخ ابن خلكان وتاريخ ابن كثير وغيرهما . وكان ما بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب هذا ساء جداً حتى حبسه الحجاج على خلاف رضا عبد الملك ، وهو يجود هذا الجود وهو فى المحبس ، وهذا ما لا نظير له بين الأجواد ؛ وعدم قبول زفر هذا البذل يدل على شهامته البالغة بعد أن رأى أريحية ابن المهلب هذه . وخالد بن الحارث المذكور فى كلام يعقوب بن شيبة من بنى العنبر ومن الحفاظ الثقات . وقال أبو نعيم الاصبهانى فى تاريخ اصبهان : (كان الهذيل والد زفر بأصبهان فى خلافة يزيد بن الوليد ابن عبد الملك وكان ينزل قرية بزاءان وكان له ثلاثة بنين : الكوثر وهرثمة وزفر أ هـ) . ولم يستوف أبو نعيم ذكر اخوانه كما رأيت . وقد سبق فى كلام يعقوب بن شيبة ذكر صباح ابن الهذيل فى عداد اخوة زفر والله أعلم .

اتصال زفر بابى حنيفة

قال الصيمرى : أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدى قال أخبرنا أبو بكر الدامغانى الفقيه قال أخبرنا الطحاوى قال أخبرنا محمد بن عبد الله

= الحجاج بل المحبوس فى حبس الحجاج هو الابن وقد فر من المحبس وتولى الولاية بدل الحجاج عند وفاته واستعاد منزلته التى كان أضاعها الحجاج (ز)

ابن أبى ثور قال أخبرنى محمد بن وهب قال : (كان سبب انتقال زفر الى أبى حنيفة أنه كان من أصحاب الحديث . فنزلت به وبأصحابه مسألة فأعيتهم فأتى أبا حنيفة فسأله عنها ، فأجابه فى ذلك فقال له من أين قلت هذا ؟ قال : لحديث كذا وللقياس من جهة كذا . ثم قال له أبو حنيفة : فلو كانت المسألة كذا ما كان الجواب فيها ؟ قال فكنت فيها أعيا منى فى الأول ، فقال - الجواب فيها كذا من جهة كذا . ثم زادنى مسألة أخرى وأجابنى فيها وبين وجهها . قال : فرحت الى أصحابى فسألتهم عن المسائل ، فكانوا فيها أعمى منى فذكرت لهم الجواب ، وبينت لهم العلل فقالوا من أين لك هذا ؟ فقلت من عند أبى حنيفة . فصرت رأس الحلقة بالثلاث المسائل . ثم انتقل الى أبى حنيفة فكان أحد العشرة الأكابر الذين دونوا الكتب مع أبى حنيفة أ هـ) . وساق ابن فضل الله العمرى فى (مسالك الابصار) هذا الخبر بنصه بطريق الطحاوى .

اقوال اهل العلم فى زفر

قال الصيمرى : أخبرنا أبو عبد الله المرزبانى قال حدثنا أحمد ابن محمد المسكى قال حدثنا ابن أبى خيثمة عن أبى الحسن المدائنى قال : زفر بن الهذيل صاحب أبى حنيفة عنبرى . وقال أيضا : أخبرنا المرزبانى قال حدثنا الحسن بن محمد المخرمى قال حدثنا محمد بن عثمان ابن أبى شيبة قال : سألت أبى وعمى أبا بكر عن زفر فقالا : كان زفر من أفقه أهل زمانه قال أبى : وكان أبو نعيم - يعنى الفضل بن دكين - يرفع زفر ويقول كان نبيلا فقيها .

قال وحدثنا أبو الحسن على بن الحسن الرازى قال حدثنا أبو عبدالله الزعفرانى نزيل واسط قال حدثنا أحمد بن أبى خيثمة قال حدثنا سليمان ابن أبى شيخ قال حدثنى عمرو بن سليمان العطار قال كنت بالكوفة أجالس أبا حنيفة فتزوج زفر فحضره أبو حنيفة فقال له : تكلم . فخطب فقال فى خطبته : هذا زفر بن الهذيل وهو امام من أئمة المسلمين وعلم

من أعلام الدين في حسبه وشرفه وعلمه . فقال بعض قومه : ما يسرنا أن غير أبي حنيفة خطب حين ذكر خصاله ومدحه ، وكره ذلك بعض قومه وقالوا له ـ حضر بن عمك أشراف قومك وتسأل أبا حنيفة أن يخطب؟! فقال لو حضرني أبي لقدمت أبا حنيفة عليه أ هـ(١) وكفى في معرفة منزلة زفر في الفضل قول أبي حنيفة هذا فيه . وقال الصيمري حدثنا أبو الحسن العباس بن أحمد بن الفضل الهاشمي قال حدثنا أحمد بن محمد المسكي قال حدثنا علي بن محمد النخعي قال حدثنا ابراهيم بن اسحاق قال حدثنا علي بن مدرك عن الحسن بن زياد قال : كان زفر وداود الطائي متواخيين فاما داود الطائي فترك الفقه وأقبل على العبادة وأما زفر فانه جمع الفقه مع العبادة ، ثم ذكر الصيمري بسنده قدوم زفر البصرة يزور داود الطائي رحمهما الله .

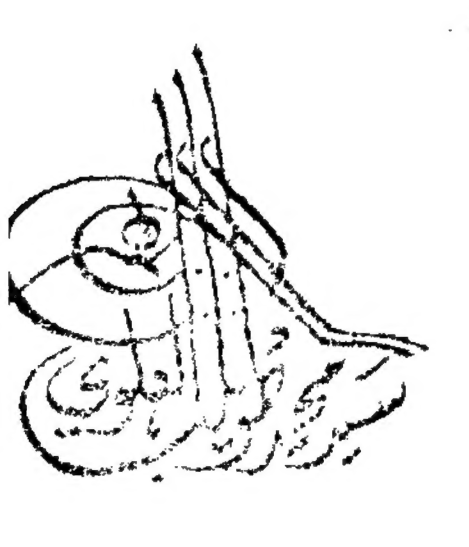
وساق الصيمري بطريق علي بن محمد النخعي عن محمد بن علي ابن عفان قال حدثنا وليد(٢) بن حماد عن الحسن بن زياد قال : ما رأيت أحداً يناظر زفر الا رحمته قال وقال زفر : أني لست أناظر أحداً حتى يقول : قد أخطأت ، ولكن أناظره حتى يجن قيل وكيف يجن ؟ قال : يقول بما لم يقله أحد .

وقال الصيمري أيضا أخبرنا عمر بن ابراهيم المقرىء قال حدثنا مكرم بن أحمد قال حدثنا أحمد بن محمد قال حدثنا مليح بن وكيع قال سمعت أبي يقول : كان زفر شديد الورع حسن القياس قليل الكتابة يحفظ ما يكتبه . وقال : أخبرنا عمر بن ابراهيم قال حدثنا مكرم قال حدثنا أبو خازم القاضي حدثنا ابن أبي عمران قال : كان زفر من بلعنبر من بيت شريف منهم وكانت أمه أمة فكان وجهه يشبه وجوه العجم لأمه . ولسانه يشبه لسان العرب قال فحضر مجلس الحجاج بن أرطأة ـ

---

(١) ومثله عند ابن ابي العوام عن أبي بكر محمد بن جعفر بن اعين البغدادي عن يعقوب بن شيبة بن الصلت (السدوسي) عن سليم ابن منصور عن عمرو بن سليمان العطار على حد سواء (ز) .

(٢) هو ابن أخي الحسن بن زياد (ز) .



وكان يتولى القضاء بالكوفة وكان يغلب عليه البذاء وكانت النخع تغمزه في نسبه — فتكلم زفر فأخذ المجلس فملأ قلب الحجاج فالتفت اليه فقال : أما اللسان فلسان عربي ، وأما الوجه فليس وجه عربي . فقال زفر : أما أنا فقد قلبني قومي . وفي رواية ابن أبي العوام عن الطحاوي عن ابن أبي عمران : (دخل زفر وأبو يوسف على حجاج بن أرطاة فجرت مسألة فقال الحجاج لزفر أما اللسان فعربي وأما الصورة فتدل على غير ذلك فقال له زفر أما أنا فيقبلني قومي وكان عنبريا من بني تميم ، وكان الحجاج يطعن في نسبه فاشتد ذلك عليه واسكته ثم ناظره أبو يوسف فقطعه فلما قاما قال لحاجبه لا يدخل هذان على بعد) .

وقال ابن أبي العوام حدثنا أبو معمر محمد بن أحمد بن خزيمة البصري قال ثنا عباس بن محمد بن حاتم قال سمعت يحيى بن معين يقول : زفر صاحب الرأي ثقة مأمون سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين وذكر له زفر فقال : كان ثقة مأمونا . وجعل يعظم أمره وهذه الدار التي فيها الجبان دارهم قلت فكيف وقع الى البصرة قال : في ميراث له فتشبث به البصريون وقالوا حدثنا فأقام فيهم[1] . وقال ابن أبي العوام أيضا حدثني أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد (الدولابي) قال سمعت العباس ابن محمد الدوري يقول سمعت يحيى بن معين يقول ثم ذكر مثله وزاد قال يحيى بن معين سمعت أبا نعيم يقول : زفر بن الهذيل من خيار الناس . وأراني أبو نعيم منزل زفر بالكوفة في جبانة كندة في وسط الجبان وجعل أبو نعيم يثني عليه . وبه الى أبي بشر عن يعقوب ابن اسحاق بن أبي اسرائيل حدثني محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة حدثني أبي ثنا ابراهيم بن المغيرة قال قيل لوكيع بن الجراح تختلف الى زفر ؟! فقال غررتمونا عن أبي حنيفة حتى فاتنا فتريدون أن تعرونا عن زفر حتى نحتاج الى أبي أسيد وأصحابه .

---

(1) لزفر رحلتان الى البصرة احداهما في حياة الامام عثمان بن مسلم البتي وثانيتهما بعد وفاة أبي حنيفة فاستقر بها (ز) .

وبه الى أبى بشر سمعت محمد بن مقاتل قال سمعت أبا نعيم الفضل ابن دكين يقول قال لى زفر بن الهذيل : أخرج الى حديثك حتى أغربله لك .وقال الذهبى : زفر ابن الهذيل العنبرى أحد الفقهاء والزهاد صدوق ، وثقة غير واحد وابن معين أ هـ .

وقال ابن حجر : ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان متقنا حافظا لم يسلك مسلك صاحبيه وكان أقيس أصحابه وأكثرهم رجوعا الى الحق توفى بالبصرة فى ولاية أبى جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو فى حديث ابن أبى الهيثم أ هـ . وقد أسقط ابن حجر بعض كلمات من كلام ابن حبان .

وقال ابن عبد البر : كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة فى الحديث أ هـ . وقد ترجم له فى (الانتقاء) ومع ذلك كله يوجد من يتكلم فيه وسنذكر ذلك فى فصل خاص ان شاء الله تعالى للفت النظر الى مواضع العبرة فى كلام المتعنتين .

بعض ما قيل فى الموازنة بين زفر وابى يوسف

قال ابن أبى العوام حدثنى محمد بن أحمد بن حماد (الدولابى) قال سمعت محمد بن شجاع الثلجى أبا عبد الله قال سمعت بعض البصريين يقول لما قدم زفر البصرة لقوه فسألوه فأعجبوا به فبلغه أنهم قالوا : ما رأينا مثل زفر فى الفقه هو أعلم الناس . فقال زفر وبلغه ذلك : كيف لو رأيتم أبا يوسف أ هـ ؟ . وحدث عن الطحاوى عن ابن عمران عن محمد ابن سلمة البلخى عن شداد قال سمعت زفر يقول : يعقوب ـ يعنى أبا يوسف ـ أفقه من أتى أ هـ .

وبهذا وذاك يكون زفر فضل أبا يوسف على نفسه رحم الله تلك النفوس الطاهرة ما كان لهوى النفس سلطان عليهم ، وكانت خدمتهم فى العلم باخلاص لله وفى الله فبارك لهم فى علومهم . وما غرهم ثناء الناس عليهم بل وقفوا موقف اتهام النفس نفعنا الله بعلومهم .



ومما يروى فى تفضيل زفر على أبى يوسف ما حدثه ابن أبى العوام عن الطحاوى عن أبى خازم عبد الحميد القاضى أنه سمع بكراً العمى يقول سمعت محمد بن ساعة يقول عن محمد بن الحسن قال : حضرت زفر وأبا يوسف يتناظران فكان أبو يوسف يقهره بكثرة الرواية عن أبى حنيفة والأخبار فاذا صار الى المقايسة قهره زفر أ هـ وأسند عن أبى بشر عن أحمد بن القاسم حدثنى أبو حفص المروزى عن بشر بن يحيى عن خالد ابن صبيح قال : رحلت الى أبى حنيفة فنعى الى فى الطريق فدخلت مسجد الكوفة فاذا الناس كلهم على زفر بن الهذيل وعند أبى يوسف رجلان أو ثلاثة أ هـ • لعل هذا كان فى مبدأ الأمر ، ثم علا شأن أبى يوسف بكثرة الآخذين عنه بحيث لا يلحقه لاحق ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء •

ومما ذكره ابن أبى العوام بسنده الى الفضل بن دكين : كان زفر يجلس الى اسطوانة وأبو يوسف بحذائه وكان زفر يلبس قلنسوة بيضاء فخمة فكانا يتناظران فى الفقه وكان زفر ركينا جيد اللسان وكان أبو يوسف يضطرب فى مناظرته فربما سمعت زفر يقول لأبى يوسف أين تفر ؟ هذه أبواب كندة مفتحة فخذ فى أيها شئت أ هـ • وأبواب كندة أبواب لقبائل كندة فى الكوفة معروفة ، ووقع فى بعض النسخ (أبواب كثيرة) بدل أبواب كندة والمعنى صحيح فى اللفظين ، ولفظ الصيمرى يسنده الى محمد بن سماعة : (كان زفر يستند الى اسطوانة وكان رجلا ركينا فينتصب فلا يزول وكان أبو يوسف اذا ناظره يكثر الحركة حتى يجىء فيجلس بين يديه أو قال بالقرب منه فكان زفر يقول ان هذه أبواب كندة فان أردت أن تفر فخذ فى أيها شئت) •

وذكر عن وكيع ما نصه : (لما مات أبو حنيفة أقبل الناس على زفر فما كان يأتى أبا يوسف الا نفر يسير النفسان والثلاثة) • فكأن جو الكوفة صفا لأبى يوسف بعد انتقال زفر الى البصرة ، بالنظر الى هذه الروايات ، على أنه ليس بقليل فى الروايات ما يفضل جانب أبى يوسف ، منها كون أبى يوسف أوسع صدراً بالتعليم من زفر ومنها ما ساقه الخطيب بطريق حماد بن أبى حنيفة انه قال : (رأيت أبا حنيفة

يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسألة فلا يقول أبو يوسف قولا الا أفسده زفر ، ولا يقول زفر قولا الا أفسده أبو يوسف الى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها على فخذ زفر وقال : لا تطمع فى رياسة ببلدة فيها أبو يوسف . قال وقضى لأبى يوسف على زفر) . وفى معناه ما ذكر الخطيب بسنده عن عبد الرزاق بن همام عن محمد بن عمارة أنه قال : (رايت أبا يوسف وزفر يوما افتتحا مسألة عند أبى حنيفة من حين طلعت الشمس الى ان نودى بالظهر ، فاذا قضى لأحدهما على الآخر ، قال له الآخر أخطأت ما حجتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبى يوسف على زفر حين نودى بالظهر . فقام أبو يوسف ، قال : فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال : لا تطمعن فى الرياسة بأرض يكون هذا بها) .

وحضور الأستاذ فى المناظرة بين تلميذيه هكذا ومصارحته لهما بالصواب والخطأ طريقة بديعة فى التدريب على المناظرة فى العلم ومنهج رائع فى شحذ الاذهان وتنمية الملكات ، وعلى كل حال هما كانا كفرسى رهان حتى ان أبا حنيفة قال يوما : (أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلا ، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ، ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار الى أبى يوسف وزفر) كما أخرجه الخطيب فى تاريخه بسنده ، وهذا شهادة من الامام الأعظم فى حقها أنهما بلغا أعلى درجات الاجتهاد عندما نطق بهذا الحكم ، وساق أيضا بطريق اسماعيل بن حماد : (كان أصحاب أبى حنيفة عشرة : أبو يوسف ، وزفر ، وأسد بن عمر والبجلى ، وعافية الأودى ، وداود الطائى ، والقاسم بن معن المسعودى ، وعلى بن مسهر ، ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، وحبان ومندل ابنا على العنزى . ولم يكن فيهم مثل أبى يوسف وزفر) وهؤلاء العشرة هم أكابر أصحاب أبى حنيفة الذين دونوا الفقه معه كما سبق فى رواية الصيمرى عن الطحاوى .

وفى طبقات على القارى : قال شداد بن حكيم سألت أسد بن عمرو :



أبو يوسف أفقه أم زفر ؟ فقال زفر أروع . قلت : عن الفقه سألتك فقال : يا شداد بالورع يرتفع الرجل . ومثله فى مناقب الكردرى ، وهذان الامامان العظيمان اللذان هما كفرسى رهان عند أهل النقد يقول عنهما الصيمرى ما رواه عن عبد الله بن محمد عن أبى بكر الدامغانى عن الطحاوى عن ابن أبى عمران عن وليد بن حماد ابن أخى الحسن بن زياد قلت لعمى الحسن بن زياد : رأيت زفر وأبا يوسف عند أبى حنيفة فكيف رأيتهما قال : رأيتهما كعصفورين انقض عليهما البازى أ هـ . وحكى القارىء عن أبى مطيع : زفر حجة الله على الناس فيما بينهم يعملون بقوله وأما أبو يوسف فقد غرته الدنيا بعض الغرور ، ومثله فى مناقب الكردرى ، هكذا يكون كلام الناس فيمن ولى الأحكام ، مع أنه لا تصلح أحوال الناس الا بقضاة عدول ، فمن تولى القضاء وعدل فهو القائم بأشق الأمرين فيستحق الاجلال ولقد صدق ابن الوردى حيث قال :

ان كل الناس أعداء لمن   ولى الأحكام هـذا ان عدل

ولذا طال لسان بعض الناس فى أبى يوسف مع ما شهر عنه من العدل فى الأحكام .

وقد حكى جماعة عن محمد بن عبد الله الانصارى انه قال : أكره زفر على أن يلى القضاء فأبى وهدم منزله واختفى مدة ثم خرج واصلح منزله ثم هدم ثانيا واختفى كذلك حتى أعفى عن تولى القضاء رحمه الله .

بعض شيوخ زفر والآخذين عنه

تفقه زفر على الامام الأعظم أبى حنيفة وجالسه أكثر من عشرين سنة ، وفى المناقب الكردرية (٢ — ١٠٤) عن زفر (جالست أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح وأشفق للناس منه وأنه كان يبذل نفسه لله تعالى أما عامة النهار فانه كان مشغولا بالمسائل وحلها وتعليمها وما يعرض عليه من النوازل وجوابها فاذا قام من المجلس عاد مريضا أو شيع جنازة أو واسى فقيرا أو واصل أخا أو سعى فى حاجة ، فاذا كان الليل خلا للتلاوة والعبادة والصلاة فكان هذا سبيله حتى توفى)

فنعم الشيخ ذلك الشيخ ونعم التلميذ ذلك التلميذ . ومع تفقه زفر عليه أكثر رواية الحديث عنه أيضا . وقد ذكر أبو سعد السمعانى فى الأنساب عند ذكر الجصينى أحمد بن بكر بن سيف : (ثقة يروى عن أبى وهب محمد ابن مزاحم المروزى عن زفر عن أبى حنيفة كتاب (الآثار) وروى عن غيره فأكثر أ هـ) وذكر الحاكم فى (١٦٤) من كتابه (معرفة علوم الحديث) « ان لزفر نسختين فى الحديث . احداهما رواية أبى وهب والأخرى رواية شداد بن حكيم » . ومرويات زفر فى الحديث بأسانيده مسرودة فى كثير من الكتب كتاريخى أصبهان لأبى الشيخ وأبى نعيم وتاريخ الخطيب وغيرها .

ومن شيوخ زفر فى الحديث سليمان بن مهران الأعمش ، ويحيى ابن سعيد الانصارى ، ومحمد بن اسحاق صاحب المغازى ، ويحيى ابن عبد الله التيمى ، واسماعيل بن أبى خالد ، وأيوب السختيانى ، وزكريا ابن أبى زائدة ، وسعيد بن أبى عروبة ، وغيرهم من شيوخ الحديث فى الأمصار ، وفى سرد أسمائهم طول وممن أخذ عن زفر عبد الله بن المبارك ، وشقيق بن ابراهيم ، ومحمد بن الحسن ، ووكيع بن الجراح ، وسفيان ابن عيينة ، وأبو على عبيد الله بن عبد المجيد البصرى — من أصحاب النبى الذين انتقلوا اليه . ومحمد بن عبد الله الانصارى القاضى — من ولد أنس بن مالك ، وهلال بن يحيى المعروف بهلال الرأى ، والحكم ابن أيوب ، وشداد بن حكيم ، والنعمان بن عبد السلام ، ومالك بن فديك ، وأبو عاصم النبيل الضحاك بن مخلد ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وأبو وهب محمد بن مزاحم المروزى ، وأبو نعيم الفضل بن دكين ، وبشر ابن القاسم ، وسعيد بن أوس ، وابراهيم بن سليمان ، وحسان ابن ابراهيم ، ومسلم بن ابراهيم ، وأكثم والد يحيى ، والحسن ابن الوليد ، ومحمد بن أعين ، وعبد الله بن أبى رزمة ، ومحمد بن وهب ، وعمر بن الزجاج ، وعبد الله بن داود الخريبى ، وخالد بن الحارث الحافظ ، وعبد الواحد بن زياد وغيرهم من حملة العلم فى الامصار .

وروى الطحاوى والدولابى : ان أبا عاصم النبيل كان يختلف الى زفر ، وكان ثمة رجل آخر يكنى أبا عاصم رث الهيئة يختلف الى زفر أيضا . فجاء أبو عاصم بضحاك بن خلد يستأذن على زفر ، فخرجت جارية لزفر ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا أبو عاصم . فدخلت الى مولاها فقالت : أبو عاصم بالباب . فقال أيهما هو ؟ فقالت النبيل منهما ، فأذنت لى فدخلت . فقال لى زفر يا أبا عاصم قد لقبتك الجارية بلقب لا أراه يفارقك أبدا . لقبتك بالنبيل . فلزمنى هذا اللقب . وقال ابن أبى العوام : حدثنيه محمد بن أحمد بن الأشعث قال سمعت يزيد بن سنان يقول سمعت أبا عاصم يقول مثله سواء آ هـ .

وفى المناقب الكردرية عن ابن المبارك انه سمع زفر يقول : (نحن لا نأخذ بالرأى ما دام اثر . فاذا جاء الأثر تركنا الرأى أ هـ) وعن والد يحيى بن أكثم (رأيت وكيعا يختلف الى زفر بالغدوات والى أبى يوسف بالعشيات ثم ترك أبا يوسف ثم جعل كل اختلافه اليه لأنه كان أفرغ . وكان يقول : الحمد لله الذى جعلك خلفا لنا عن الامام ولكن لا يذهب عنى حسرة الامام) وعن الفضل بن دكين : (لما مات الامام لزمت زفر لأنه كان أفقه أصحابه وأروعهم) وعن الحسين بن الوليد (انه كان أصلب أصحاب أبى حنيفة وأدقهم نظرا) .

نماذج من اقوال زفر وأجوبته فى المسائل

روى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن محمد بن الحسن بن مرداس عن أبى بكرة العطار عن أبى عاصم النبيل قال قال بن الهذيل :(من قعد قبل وقته ذل) يعنى من جعل لنفسه مجلسا خاصا لنشر العلم قبل أن يتكامل فى العلم فضحته شواهد الامتحان وتكشف جهله بأخطأئه فى أجوبة المسائل ، وكم من ناشىء يعتريه الغرور فيظن بنفسه الاستغناء عن أستاذه فيستقل بمجلس فى العلم قبل أوانه ، ثم يعود الى رشده فيرجع الى ملازمة شيخه .

وبه الى ابن مرداس عن زيد بن أخزم عن أبى عاصم عن زفر فى رجل باع من رجل جارية بألف درهم على أن ينقده الثمن فيما بينه وبين ثلاثة أيام والا فلا بيع بينهما قال : البيع فاسد • وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن أبى العباس الا يلى عن زيد بن أخزم عن عبد الله ابن داود : سألت زفر بن الهذيل عن قرض الخبز فقال لى : لا يجوز الا وزنا • وروى ابن أبى العوام عن محمد بن عبد الله بن سعيد البصرى عن اسحاق بن ابراهيم الشهيدى عن يحيى بن يمان عن سفيان عن زفر عن قيس بن حبتر قال : مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية كمثل مؤمن آل فرعون • وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن ابراهيم بن مرزوق عن محمد بن عبد الله الانصارى عن الأشعث الحمرانى عن عبد الواحد ابن صبرة قال كنت عند القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعندهما اياس بن معاوية فسألهما رجل عن رجل قال لامرأته (أنت طالق ان) • فلم يدريا ما يجيبان به فقالا أفته يا أبا واثلة ، فقال اياس : هذا رجل أراد أن يطلق امرأته فلم يفعل • قال الأنصارى : فذكرت ذلك لزفر ابن الهذيل فقال : أخطأ اياس هذا رجل طلق وأراد أن يستثنى فلم يفعل• وروى ابن أبى العوام عن أبى بكر محمد بن هارون بن حسان البرقى عن بكر بن القاسم عن يحيى بن المغيرة القرشى عن سعيد بن أوس • قال : سمعت زفر يقول فى رجل أسقط سجدة من ركعة فاستوى قائما قبل أن يفتح فاتحة الكتاب : انه يخر ساجدا ثم يعود الى استئناف عمله • وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن بكار بن قتيبة عن هلال بن يحيى قال سألت أبا يوسف عن رجل له مائتا درهم حال عليها حولان قال فى الحول الأول خمسة دراهم ولا شىء عليه فى الحول الثانى فقلت له فان زفر يقول : ان عليه عشرة دراهم • فما حجتك عليه ؟ قال : ما حجتى على رجل يزعم فى مائتى درهم أربعمائة درهم • قال بكار : تكرر الأحوال عليها •

وقال أبو نعيم الاصبهانى فى تاريخ اصبهان فى ترجمة زفر : رجع عن الرأى وأقبل على العبادة أ هـ • لكن هذا وهم منه لأن الذى ترك الرأى وأقبل على العبادة هو صديقه داود الطائى كما سبق وأما زفر

نفسه فممن جمع بين الفقه والعبادة . والرأى المستمد من الكتاب والسنة ليس بشىء يرجع عنه وانما الذى يستحق الهجر هو الرأى المستند الى الهوى دون الكتاب والسنة وأصحابنا براء من ذلك . وزفر عاش فقيها يستعمل الرأى واليقظة فى الفهم ومات فقيها ذا بصارة فى الرأى والفته ولم يكن يرى أن الرأى والفهم فى دليل الحكم مما يتاب منه .

ومن الدليل على ذلك ما حدثه ابن أبى العوام عن الطحاوى عن ابن أبى عمران عن أبى نعيم الفضل بن دكين : دخلت على زفر وقد احتضر وهو يقول : فى حال لها مهر وفى حال لها ثلث مهر . أهكذا يكون من رجع عن الرأى ! رضى الله عنه .

وساق أحمد بن محمد بن سعيد التميمى عن عبد الرحمن بن مالك ابن مغول ـ كما رأيت بخط الحافظ البرزالى : (جاء رجل الى أبى حنيفة فقال : انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ قال : المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقتها . ثم جاء الى سفيان الثورى فقال : يا أبا عبد الله انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ . قال : اذهب فراجعها فان كانت قد طلقتها لم تضرك المراجعة شيئا . ثم أتى شريك بن عبد الله فقال يا أبا عبد الله انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى طلقت امرأتى أم لا ؟ قال : اذهب فطلقها ثم راجعها ثم أتى زفر بن الهذيل فقال : يا أبا الهذيل انى شربت البارحة نبيذا ولا أدرى أطلقت امرأتى أم لا ؟ قال : هل سألت غيرى قال نعم أبو حنيفة ، قال فما قال لك ؟ قال المرأة امرأتك حتى تستيقن انك قد طلقتها . قال الصواب ما قال فهل سألت غيره ؟ قال : سفيان الثورى . فما قال لك!؟ قال اذهب فراجعها فان كانت قد طلقتها فقد راجعتها وان لم تكن طلقتها لم تضرك المراجعة شيئا . قال : ما أحسن هذا قال فهل سألت غيره ؟ قال : شريك بن عبد الله قال : فما قال لك ؟ قال : اذهب فطلقها ثم راجعها . قال : فضحك زفر ثم قال : أضرب لك مثلا : رجل مر بشعب يسيل ماء فأصاب ثوبه . قال أبو حنيفة : ثوبك طاهر وصلاتك تامة حتى

تستنيقن أمر الماء ، وقال لك سفيان : اغسله فان بك نجسا فقد طهر وان بك نظيفا زاده نظافة ، وقال لك شريك : اذهب فبل عليه ثم اغسله أ هـ . وتلك نماذج من آرائه وأجوبته .

منع زفر العامة من الخوض فى مضايق المباحث الكلامية

أنبأ ابن أبى العوام عن الدولابى عن محمد بن شجاع عن الحسن بن زياد سمعت زفر بن الهذيل وسأله رجل فقال له : القرآن كلام الله . فقال له الرجل أمخلوق هو ؟ فقال له زفر : (لو شغلك فكر فى مسألة أنا فيها أرجو أن ينفعنى الله بعملها لشغلك ذلك عن ذلك الذى فكرت فيه ، والذى فكرت فيه ، والذى فكرت بلا شك يضرك ، سلم لله عز وجل ما رضى به منك ولا تكلف نفسك ما لا تكلف) .

وبه عن الحسن بن زياد وقد قال له رجل من أهل بغداد أكان زفر قياسا فقال له الحسن : وما قولك قياسا ؟ هذا كلام الجهال ، كان عالما . فقال الرجل : أكان زفر نظر فى الكلام ؟ فقال سبحان الله ما أسخفك ! تقول لأصحابنا أنهم نظروا فى الكلام ، وهم بيوت العلم والفقه ، انما يقال نظر فى الكلام فيمن لا عقل له ، وهؤلاء كانوا أعلم بحدود الله عز وجل وبالله من أن يتكلموا فى الكلام الذى تعنى وما كان يهمهم غير الفقه[1] والاقتداء بمن تقدمهم أ هـ .

ومعنى ذلك زجر العامة عما لا قبل لهم به من دقائق علم الكلام خوفا عليهم من الزلل والا فهو من أئمة علم أصول الدين جادل الناس فى مسائله فجدلهم ، ويشهد لذلك ما ذكره جمال الدين أبو يعلى أحمد بن مسعود الاصبهانى باسناده عن خالد بن زيد العمرى أنه قال : (كان أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزفر وحماد بن أبى حنيفة قوما

---

(١) والفقه : معرفة النفس ما لها وما عليها فيشمل باطلاقه العمل والعقيدة والخلق عند ابى حنيفة بل كان يسمى ما يتعلق بتمحيص العقيدة الصحيحة الفقه الأكبر وكان الذى يأباه أصحابه هو الخوض فى مثارات الشبه فى الاعتقاد عند العامة بدون حجة قائمة من الكتاب والسنة والنظر العقلى الصحيح (ز) .

قد خصموا بالكلام الناس ، وهم أئمة العلم) كما ذكره صاحب الفتاوى البزازية فى المناقب (١ ــ ٣٨) .

نشر زفر لمذهب أبى حنيفة فى البصرة

وروى ابن أبى العوام عن الطحاوى عن أبى خازم القاضى سمعت أحمد بن عبدة يقول قدم يوسف بن خالد السمتى البصرة من عند أبى حنيفة ، فكان يأتى عثمان البتى وهو رئيسها وفقيهها فيجاذب أصحابه المسائل ، ويذكر لهم خلاف أبى حنيفة اياهم فيضربونه ويسبون أبا حنيفة فلم يزالوا كذلك حتى قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان أعلم بالسياسة منه فكان يأتى حلقة البتى فيسمع مسائلهم فاذا وقف على الأصل الذى بنوا عليه تتبع فروعهم التى فرعوا على ذلك الأصل ، فاذا وقف على تركهم الأصل طالب البتى حتى يلزمه قوله ويبين له خروجه عن أصله فيعود أصحابه شهودا عليه بذلك ، فاذا وقف أصحاب البتى على ذلك واستحسنوا ما كان منه قال لهم : ففى هذا الباب أحسن من هذا الأصل ويذكره لهم ويقيم الحجة عليهم فيه ويأتيهم بالدلائل عليه ويطالب البتى بالرجوع اليه ويشهد أصحابه عليه بذلك ثم قال لهم ، هذا قول أبى حنيفة . فما مضت الأيام حتى تحولت الحلقة الى زفر وبقى البتى وحده أ هـ ــ هذا فى رحلة زفر الى البصرة فى حياة امام أهل البصرة عثمان بن مسلم البتى رضى الله عنه .

وأما رحلته الى البصرة بعد وفاة البتى وأبى حنيفة واستقراره فيها أنبأ الصيمرى عن أبى الحسن العباس بن أحمد بن الفضل الهاشمى عن أحمد بن محمد المسكى عن على بن محمد النخعى عن أبى خازم القاضى عن بكر (العمى) عن هلال بن يحيى قال : رحل يوسف بن خالد السمتى من البصرة الى الكوفة فتفقه عند أبى حنيفة فلما أراد الخروج الى البصرة قال له أبو حنيفة : اذا حضرت الى البصرة فانك تجىء الى قوم قد تقدمت لهم الرياسة فلا تعجل بالقعود عند اسطوانة واتخاذ حلقة ثم تقول قال أبو حنيفة وقال أبو حنيفة فانك اذا فعلت ذلك لم تلبث

حتى تقـام . قال فخرج يوسف فأعجبته نفســه وجلس عند اسطوانة وقال : قال أبو حنيفـة . قال فأموه من المســجد فلم يذكر أحـد أبا حنيفة حتى قدم زفر البصرة فجعل يجلس عند الشيوخ الذين تقدمت لهم الرياســة فيحتج لأقوالهم بما ليس عندهم فيعجبون من ذلك ثم يقول ها هنـا قول آخر أحسن من هذا فيذكره ويحتج له ولا يعلم أنه قول أبي حنيفة فاذا حسن في قلوبهم قال : انه قول أبي حنيفة فيقولون هو قول حسن لا تبالي بمن قال به فلم يزل بهم حتى ردهم الى قول أبي حنيفة رضى الله عنــه أ هـ .

ســوء السياسة في العالم يحرمه نشر العلم واستفادة المجتمع منه ولو أخذ يوسف السمتي بوصايا أبي حنيفة في معاشرة الناس وسياستهم لمـا أوذي ولا طعن في دينه ولا رمي ببدع فظيعة ليس هذا موضـع شرحها[1] . ووصية أبي حنيفة ليوسف السمتي مدونة في كتب المناقب وقد قام بتحقيقها الأســتاذ الغيور المفضــال الشيخ ابراهيم المختــار الزيلعي الجبرتي حفظه الله وهي مطبوعة في مطبعة السيد مصطفى البابي الحلبي ، وهي من عيون الوصايا ، تعلم القائم بالارشاد بين الناس طرق معاشرتهم وسياستهم لينجح في ارشادهم وتعليمهم : وقد روى الصيمري عن عبد الله بن محمد الأســدي عن أبي بكر الدامغاني عن الطحاوي عن ابن أبي ثور عن ســليمان بن عمران عن أســد : قدم زفر البصرة فدخل مسجدها فانفضت اليه حلق أصحاب التابعين .

زفر في طبقة المجتهد المطلق في التحقيق

وان حافظ على انتســابه الى أبي حنيفة

بعد أن علم أن زفر مع أبي يوسف كفرسي رهان في الاجتهــاد

---

(١) أصعبها ما عند ابن أبي حاتم لكن ليس عليها مسحة الثبوت ، ومثله اني ينكر القيامة والميزان ؟! راجع تهذيب التهذيب ، وكان في حـد ذاته عالمـا جليلا وكفى دليلا على جلالة قدره أخذ الامام الشافعي عنه رغم تقولات المتقولين فيــه ، واخرج له ابن ماجــة وله أحاديث كثيرة مخرجة في تاريخ أصبهان لأبي نعيم وغيره (ز) .

لا يبقى وجه للالتفات الى قول من ظن أن زفر فى عداد المجتهدين فى المذهب كما أوضحنا ذلك فى غير موضع • وانما وقع فى ذلك الظن من رأى كثرة تنويه زفر بأقوال الامام الأعظم مع ان ذلك التنويه والموافقة لآرائه انما كان بمعرفة لدليل الحكم كما عرف هو لا تقليدا له•

قال ابن أبى العوام حدثنى محمد بن أحمد بن حماد سمعت محمد ابن شجاع سمعت أبا عاصم الضحاك بن مخلد يقول سمعت زفر يقول: ما خالفت أبا حنيفة فى قول الا وقد كان أبو حنيفة يقول به • وحدث ابن أبى العوام أيضا عن الطحاوى عن ابن أبى عمران سمعت سوار ابن عبد الله العنبرى القاضى ــ يعنى الحفيد ــ يقول سمعت أبا عاصم يقول قال زفر بن الهذيل : كل أقوالى هذه قد قالها أبو حنيفة قبلى ثم وقف منها على أشياء لم أقف أنا عليها فخالفها لما وقف عليه منها وثبت أنا عليها • قال أحمد بن أبى عمران فأنكرت ذلك ، فأتيت محمد بن شجاع فحدثته بذلك فقال لى : مكانك ثم دخل منزله وخرج وفى يده كتاب فقرأ على منه هذه الحكاية عن أبى عاصم كما سمعتها من سوار العنبرى أ هـ • وفى الكردرية أن يحيى بن أكثم روى عن والده أنه سمع زفر يقول (لم أجترىء أن أخالف الامام بعد وفاته لأنى اذا خالفته فى حياته وأبرزت الدليل وأتيت به ألزمنى بالحق الظاهر من ساعته وردنى الى قوله فأما بعد وفاته فكيف أخالفه ؟ وربما لو كان حيا وحاج لردنى الى قوله) • وهذا ليس بتقليد له بل سكوت عما لا يعلم دليله واطمئنان الى الدليل وفهم صحيح للدليل فيما يعلم وهو الاجتهاد بعينه، وأبو حنيفة هو الذى كان ينهى أصحابه عن التقليد ويأمرهم بابداء ما عندهم من الحجج فيناقشهم فيها حتى يستقر الحق فى نصابه ، وكان لأصحابه مقام عظيم فى سرد الدلائل وتحقيق المسائل بل كان أبو حنيفة يقول لا يحل لأحد أن يفتى بقولى ما لم يعلم من أين قلته ، ومع ذلك كله كان لزفر مخالفات فى الأصول والفروع مدونة فى كتب القوم فلا يكون تأدب زفر تجاه استاذه ومحافظته على الانتساب اليه وعرفانه لجميله عليه مما ينزل مقامه فى الاجتهاد المطلق على حدة ذهنه فى قياس المسائل وقوة ضبطه للدلائل واتقانه للحديث كما أقر بذلك أمثال

ابن حبان : وورعه البالغ معروف عند الجميع رضى الله عنه وعن أساتذته وأصحابه أجمعين .

ولزفر نحو سبع عشرة مسألة يفتى بها فى المذهب عند نقاد المذهب ألف فيها السيد أحمد الحموى شارح الأشباه والنظائر رسالة سماها (عقود الدرر فيما يفتى به فى المذهب من أقوال زفر) وشرحها الشيخ عبد الغنى النابلسى ، ومحصها ابن عابدين ، وانفرادات زفر فى المسائل مدونة فى منظومة النسفى فى الخلاف وشروحها ببسط . وقد أشار أبو زيد الدبوسى فى تأسيس النظر فى فصل خاص الى مخالفات زفر فى الأصول والفروع كما أشير الى آرائه الخاصة فى الأصول فى كتب الأصول المبسوطة كشامل الأتقانى وبحر الزركشى وشروح أصول البزدوى خاصة ، فان كان شأن المجتهد المطلق الانفراد بمسائل فى الأصول والفروع فها هو زفر له انفرادات فى الناحيتين على ان الموافقة لامام فى الرأى فى بعض مسائل الأصول أو الفروع عن علم بأدلتها لا تخل بالاجتهاد المطلق أصلا كما أوضحت ذلك فى كثير من المواضع والله سبحانه أعلم .

كلام اهل النقد فى زفر

قال الذهبى فى الميزان : أحد الفقهاء والزهاد صدوق وثقه غير واحد وابن معين وقال ابن سعد : لم يكن فى الحديث بشىء اهـ . لعله يريد قلة حديثه لأنه يقال : فلان لم يكن فى الحديث بشىء . بمعنى أنه قليل الحديث — يعنى فى نظر القائل — كما فى الرفع والتكميل لعبد الحى اللكنوى ، وهذا ربما يسلم بالنظر الى علم ابن سعد فقط ، والا فزفر على علو منزلته فى الاجتهاد حافظ معروف بالاتقان عند ابن حبان وغيره .

وقال ابن حجر فى اللسان : قال ابن أبى حاتم قرىء على عباس الدورى وأنا أسمع سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين وذكر عنده زفر فقال : كان ثقة مأمونا . قال العباس وسمعت يحيى — وهو ابن معين — يقول هو ثقة مأمون . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان متقنا حافظا لم يسلك مسلك صاحبه وكان أقيس أصحاب أبى حنيفة وأكثرهم رجوعا الى

الحق توفى بالبصرة والاية أبى جعفر وقد وقع لنا حديثه بعلو فى حديث ابن أبى الهيثم أهـ ثم لخص ابن حجر كلام العقيلى وقال : قال أبو موسى محمد بن المثنى ما سمعت عبد الرحمن بن مهدى يحدث عن زفر شيئا قط ، وقال أيضا حدثنا معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار[1] القاضى فجاء الغلام فقال : زفر بالباب فقال : زفر الرأى لا تأذن له ، فانه مبتدع . فقيل له ابن عمك قدم من سفر ولم تأته ومشى اليك فلو أذنت له . فأذن له فما كلمة كلمة حتى خرج .

وقال بشر بن السرى ، ترحمت يوما على زفر وأنا مع سفيان الثورى فأعرض بوجهه عنى أ هـ . ثم ذكر ابن حجر عن أبى الفتح الأزدى : زفر غير مرضى المذهب والرأى أ هـ . وذكر عن ابن عدى أنه قال الحارث ابن مالك ان أول من قدم البصرة برأى أبى حنيفة زفر وسوار بن عبد الله على القضاء فاستأذن عليه فحجبه وسعى بى اليه فقلت : أصلحك الله ان زفر رجل من أهل العلم ومن العشيرة قال : أما من العشيرة فنعم . وأما من أهل العلم فلا ، فانه أتانا ببدعة : برأى أبى حنيفة . فقلت : انه يحب أن يتزين بمجالسة القاضى . قال فائذن له على أن لا يتكلم معنا فى العلم أ هـ .

فاذا تهرب سوار على ضيق دائرة روايته من كلام زفر معه فى العلم لا يتعجب ، لأن مثل الحجاج بن ارطاة القاضى المعدود فى الحفاظ على سعة دائرة روايته كان يحجب زفر عنه تهربا من كلامه معه فى العلم وأما عد رأى أبى حنيفة بدعة فما يرده عمل فقهاء الأمة من الصحابة والتابعين كما تجد مصداق ذلك فى « الفقيه والمتفقه » للخطيب البغدادى و « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ، ومن أنكر الفهم فى الكتاب والسنة ، ورد النظير الى النظير فهو المبتدع ، كما ذكرنا ذلك فيما علقناه على « النبذ » لابن حزم .

---

(١) استمر سوار على قضاء البصرة من سنة ١٣٨ هـ الى وفاته فى ذى القعدة سنة ١٥٦ هـ كما ذكره ابن حبان ثم خلفه ابنه عبد الله فى قضاء البصرة فلا يتصور تولى زفر قضاء البصرة لا فى حياة أبى حنيفة ولا بعد وفاته (ز) .

وأما حال سوار القاضى هذا ــ وهو الجد لا الحفيد ــ فلم يخرج عنه واحد من أصحاب الأصول الستة على تقديم زمنه ، وفيه يقول شعبة : ما تعنى فى طلب العلم وقد ساد[1] ، وقال الثورى : ليس بشيء. وذكره العقيلى فى الضعفاء ، وقال ابن سعد : قليل الحديث . وقال الذهبى : روى القليل عن بكر المزنى والحسن أ هـ وسلطان مثله يكون بقوة الحكم لا بقوة العلم ، وقد روى عنه أنه لما قيل له : لو نظرت فى شيء من كلام أبى حنيفة وقضاياه . قال : كيف أنظر فى كلام رجل لم يؤت الرفق فى دينه ؟ . فمن يكون زهده فى الحديث كما سبق يكون زهده فى الفقه ورأى أبى حنيفة وأصحابه كما ترى ، على أن زفر حيث حول وجوه المتفقهين بالبصرة الى فقه أبى حنيفة كان رؤوس أهل البصرة من طوائف الفقه ، لا يغتفرون ذلك لزفر ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومثل سوار فى ضيق دائرة عمله وكلام أهل النقد فيه لا يتحاكم اليه فى مثل زفر بعد ان تواطأت القلوب مع الألسن عند جمهرة النقاد على الثناء عليه خيرا والشهادة له بالحفظ والاتقان ودقة الفهم وشدة الورع .

وأما أبو الفتح الأزدى فلا يكون مرضى المذهب والرأى عنده الا من كان رافضا مثله فى الرأى والمذهب ، والحاصل ان الجرح غير المفسر لا يلتفت اليه ازاء صرائح التوثيق من أهل الشأن ، وأما حكاية عدم رواية ابن مهدى عن زفر فشهادة على النفى وعلى فرض ثبوتها لا يخلو ابن مهدى من تأثير الثورى عليه وهو ضيفه النازل عنده المختفى لديه سنين ، كما ذكرت فى لفت اللحظ ، حيث كان عنده بعض انحراف عن أبى حنيفة وأصحابه فى بعض الروايات كما هو شأن التنافس بين الأقران على أن رستة عبد الرحمن بن عمر ظنين فى ابن مهدى ، كما ترى ذلك فى الميزان وغيره ، وبشر بن السرى ممن أطالوا الكلام فيه ، ولا مانع من أن يستاء الثورى من زفر ، وقد بلغه ما قاله فى جامع سفيان الثورى بالبصرة ، وذلك ما حكاه عكرمة بن عمار انه لما قدم زفر البصرة ونقل اليه جامع سفيان قال : هذا كلامنا ينسب الى غيرنا أ هـ والكلام

(1) وقد ورد : تعلموا قبل أن تسودوا (ز) .

بين الأقران مما لا يلتفت اليه كثير عند أهل النقد ، راجع ما ذكرناه فى الثورى فى التأنيب « ١١٠ » .

وأما قول أحمد بن المعذل :

(ان كنت كاذبة الذى حدثتنى) فعليك اثم أبى حنيفة أو زفر
المائلين الى القياس تعمدا والراغبين عن التمسك بالخبر

فنفشه مصدور من تضايقه بالبصرة من أصحاب زفر القائمين بنشر فقه أبى حنيفة هناك نشرا مكتسحا لآراء سائر الطوائف ، لكن الواجب على الهاجى ان يعلم ان الهجو انما يكب الهاجى فى النار ، من غير أن يضر الا فى شىء ، وأن التحاكم فى المسائل الخلافية الى الحجج الناهضة لا الى الشغب الفارغ ، والاقذاع المزرى ، فما ذنب زفر ؟ حتى يستعجل الولوغ فى دمه ودم أستاذه بهذه الصورة البشعة ، ولم يريا الاثفار ، ولا قدما القياس على صحاح الآثار ، ولا فتحا باب الاسترسال فى نقض الشرع باسم المصلحة ، ولا كانا يستصحبان من يغنى لهما فى مجالس العلم ، وأنت تعلم تفقه ابن المعذل على شيخه القادم الى البصرة ومعه من يغنيه فزهد فيه أهل العلم بالعراق ، وهو خلفه هناك فى فقهه فمثله لو سكت لكان أستر له ولطائفته . والمصراع الأول مضمن من شعر لحسان رضى الله عنه ، وأخوه عبد الصمد[1] اذا تحاكمنا اليه فى أخيه نراه يقول فيه :

أضاع الفريضة والسنة فتاه على الانس والجنة
كأن لنا النار من دونه وأفرده الله بالجنة
وينظر نحوى اذا زرته بعين حماة الى كنه

وهذا هو قول أخيه فيه

وقد ذكر ابن عبد البر فى « الانتقاء » ان أبا جعفر الطحاوى لما سمع البيتين (لأحمد بن المعذل قال) : وددت أن لى حسناتهما وأجورهما وعلى اثمهما أ هـ .

---

(١) يقول الذهبى فى المشتبه : احمد بن المعذل ــ بفتح الذال المشددة من ائمة المالكية تفقه عليه اسماعيل القاضى . وأخوه عبد الصمد ابن المعذل شاعر بديع القول أ هـ (ز) .

ومن الناس من لم يكتف بذلك التهجم فى البيتين حتى غير المصراع الثالث وقال : (الوارثين على القياس تمردا) .

وقد عارض كثير من أصحابنا البيتين ، وأقرب ما قيل فى المعارضة الى الأدب قول الحافظ القاسم بن قطلوبغا :

كذب الذى نسب المـآثم للذى قاس المسـائل بالكتـاب وبالأثر
ان الكتـاب وسـنة المختار قـد دلا عليـه فدع مقـالة من قشر

وأدلة القياس من الكتاب والسنة مبسوطة فى كتب الأصول المبسوطة وفى كثير من سائر الكتب كما سـبق . سامحهم الله وايانا بمنه وكرمه ووقانا شر التعصـب والتحزب ووفقنا لانزال النـاس منازلهم بأعـدل الموازين . وتغـاير العلماء وتحاسـدهم مما أدى الى رد أقوال بعضهم فى بعض عند أهل النقد ولا سيما عند اختلاف المذاهب كما هو معروف . فنسأل الله الصون من متابعة الهوى .

وذكر العقيلى عن عبد الرحمن بن محمد عن رستة عن ابن مهدى عن عبد الواحـد بن زياد قال : قلت لزفر بن الهذيل (عطلتم حدود الله كلها فقلنا ما حجتكم ؟ فقلتم : ادرؤوا الحدود بالشبهات حتى اذا صرتم الى أعظم الحدود وقول النبى صلى الله عليه وسلم : لا يقتل مؤمن بكافر ، فعلتم ما نهيتم وتركتم ما أمرتم به . هذا أو نحوه من الكلام) ولفظ عبد الواحـد فى رواية الطحاوى عن ابن أبى عمران عن أبى عبيـد عن ابن مهدى (قلت لزفر يقولون انكم تدرؤون الحدود بالشبهات وقد جئتم الى أعظم الشـبهات فأقدمتم عليه قال : وما هو ؟ قلت : المسـلم يقتل بالكافر . قال فاشهد أنت على رجوعى عن هذا أ هـ) . على أن هناك أثارا عن ابن عمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ومراسيل يؤيد بعضها بعضا ، مع كون المراد بالكافر من لا عهد له بدليل ذكر (ولا ذو عهد فى عهده) أى بكافر غير معاهد فلا يكون دليل المذهب ضعيفا . راجـع جواهر الزبيدى (٢ ــ ١٧٥) وموضـع العبرة فى عمل العقيلى هنا تصرفه فى الرواية فقارن بين الروايتين ثم الحكم .

هل ولى زفر قضاء البصرة ؟

قال الحافظ عبد القادر القرشي : قال أبو عمر كان زفر ذا عقل ودين وفهم وورع وكان ثقة فى الحديث أ هـ . وذكر القرشي قبل ذلك عن أبى نعيم : كان زفر ثقة مأمونا ؛ دخل البصره فى ميراث أخيه فتشبث به أهل البصرة فمنعوه الخروج منها أ هـ ثم قال : وتولى قضاء البصرة أ هـ وهذا متابعة منه لابن عبد البر حيث قال فى الانتقاء :

« وكان زفر كبيرا من كبار أصحاب أبى حنيفة وأفقههم ، وكان يقال انه كان أحسنهم قياسا ، ولى قضاء البصرة ، نقال له أبو حنيفة : قد علمت ما بيننا وبين أهل البصرة من العداوة والحسد والمنافسة ، وما أظنك تسلم منهم ، فلما قدم البصرة قاضيا اجتمع اليه أهل العلم وجعلوا يناظرونه فى الفقه يوما بعد يوم ، فكان اذا رأى منهم قبولا واستحسانا لما يجىء به قال لهم : هـذا قول أبى حنيفة فكانوا يقولون : أو يحسن أبو حنيفة هذا ؟ فيقول لهم : نعم وأكثر من هـذا ، فلم يزل بهم اذا رأى منهم قبولا لما يحتج به عليهم ورضا به وتسليما له قال لهم : هـذا قول أبى حنيفة . فيعجبون من ذلك ، فلم تزل حاله معهم على هذا حتى رجع كثير منهم عن بغضه الى محبته ، والى القول الحسن فيه بعد ما كانوا عليه من القول السىء فيه ، وكان زفر قد خلف أبا حنيفة فى حلقته اذ مات ، ثم خلف بعده أبو يوسف ، ثم بعدهما محمد بن الحسن ، ومات زفر سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة أ هـ » .

ويخدش فى دعوى توليه قضاء البصرة استمرار قضاء سوار ابن عبد الله العنبرى بالبصرة من سنة ١٣٨ هـ الى وفاته فى ذى القعدة سنة ١٥٦ هـ كما يقول ابن حبان وتولى ابنه عبد الله بن سوار قضاء البصرة بعد وفاة أبيه ، فيكون القرشي وابن عبد البر واهمين فى ذلك ، وكان لزفر قرابة بالبصرة فزارهم فى عهد عثمان البتى المتوفى سنة ١٤٣ فجرى بينهما ما سبق ذكره بأسانيده . ثم رحل الى البصرة بمناسبة وفاة أخيه بعد وفاة أبى حنيفة فتمسك أهل البصرة به ، فأقام هناك ينشر العلم الى أن مات بالبصرة وسبق بيان مبلغ ما أوذى به بسبب امتناعه عن قبول القضاء ، رحمه الله وأرضاه . ولابن عبد البر بعض أغلاط فى تراجم المشارقة .

وفاة زفر فى البصرة وكلام أهل العلم فى زهده فى الدنيا

سبق بيان سبب اتصال زفر بأبى حنيفة وملازمته لمجلسه أكثر من عشرين سنة وقد روى الصيمرى عن عبد الله بن محمد الشاهد عن مكرم عن أحمد بن محمد عن مليح بن وكيع عن أبيه قال : لما مات أبو حنيفة أقبل الناس على زفر فما كان يأتى أبا يوسف الا نفر يسير ، النفسان والثلاثة . وكان زفر يكنى بأبى خالد وبأبى الهذيل وكان من أهل أصبهان ومات أخوه فتزوج بعده بامرأة أخيه فلما احتضر دخل عليه أبو يوسف وغيره فقالوا له ألا توصى يا أبا الهذيل فقال : هذا المتاع الذى ترونه لهذه المرأة ، وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم هى لولد أخى وليس لأحد على شيء ولا لى على أحد شيء ، وكان زفر شديد العبادة والاجتهاد .

وقال الصيمرى أخبرنا عمر بن ابراهيم عن مكرم عن محمد بن أحمد ابن يعقوب السدوسى قال حدثنا جدى ــ وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت المالكى ــ قال : زفر بن الهذيل عنبرى من أنفسهم يكنى أبا الهذيل ، وكان قد سمع الحديث ونظر فى الرأى فغلب عليه ، ونسب اليه ومات بالبصرة ، وأوصى الى خالد بن الحارث (الحافظ) وعبد الواحد بن زياد ، وكان أبوه الهذيل يلى الأعمال ومات وهو والى أصبهان ، وكان أخوه صباح بن الهذيل على صدقة بنى تميم ، وزفر هو زوج أخت خالد ابن الحارث ومات فى أول خلافة المهدى سنة ثمان وخمسين ومائة أ هـ .

وكلام يعقوب بن شيبة هذا لا غبار عليه الا أن جعل وفاته فى أول خلافة المهدى فيه وقفة لأنه نص ابن خلكان وغيره على أن وفاته فى شعبان من سنة ١٥٨ هـ فيكون وفاته قبل وفاة المنصور بأربعة أشهر وسبق أن نقلنا من ثقات ابن حبان وفاته فى ولاية أبى جعفر المنصور، وقال أحمد بن خلف وعبد الباقى ابن قانع فى رواية المرزبانى عند الصيمرى أن زفر مات سنة ١٥٨ هـ وفيها مات المنصور واسرائيل ابن يونس . وحكى أبو خازم عن بكر العمى أن زفر توفى سنة ١٥٨هـ وهو ابن ثمان وأربعين سنة كما ذكره ابن أبى العوام .

وعن بشر بن القاسم سمعت زفر يقول : لا أخلف بعد موتى شيئا أخاف عليه الحساب فلما مات قوم ما فى بيته فلم يبلغ ثلاثة دراهم ،

ولما احتضر قال له أبو يوسف وغيره أوص فقال هذا المتاع لزوجتي وهذه الثلاثة الآلاف الدرهم لولد أخي — وكان تزوج امرأة أخيه بعد وفاته — وأما أنا فليس لي على أحد شيء ولا لأحد على شيء كما في مفتاح السعادة والمناقب الكردرية ، وعن ابراهيم بن سليمان قال : كنا اذا جالسنا زفر لي تقدر أن نذكر الدنيا بين يديه فاذا ذكرها واحد منا قام من المجلس وتركه وكنا تتحدث فيما بيننا ان الخوف قتله ، كما في الكردرية .

وقال النواوي في تهذيب الأسماء : كان جامعا بين العلم والعبادة وكان صاحب حديث ثم غلب عليه الرأى قال ابن أبي حاتم : روى عن الحجاج بن أرطأة وروى عنه أبو نعيم (الفضل بن دكين) وحسان ابن ابراهيم وأكثم بن محمد (والد يحيى) قال أبو نعيم كان زفر ثقة مأمونا ، دخل البصرة في ميراث أخيه فتشبث به أهل البصرة فمنعوه الخروج منها قال يحيى بن معين : زفر صاحب الرأى ثقة مأمون قال ابن قتيبة : توفي بالبصرة أ هـ .

ومما قيل في مدحه رضي الله عنه :

قوس القياس به كانت موترة	ما عاش والآن أضحت مالها وتر
لقد حوى في قياس الفقه مرتبة	علياء قد قصرت من دونها الفكر
قياسه قد صفا في بحر خاطره	وحاسدوه لشوم الخلق قد كدروا
غدا لكسر قياس الناس جابره	وهم لحيدهم حقا قد انكسروا
عيونهم في الليالي بالكرى كحلت	وعينه كحلها في ليلة السهر
أنى يسلويه في فقه له أحد ؟ !	هل يستوى الذهب الابريز والحجر ؟

وبهذا القدر نكتفي في بيان سير هذا الامام العظيم رفع الله مقامه في الجنة ونفع بعلومه الأمة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

قد فرغ الفقير اليه تعالى محمد زاهد بن الحسن بن على الكوثرى من تحرير هذه الرسالة بتوفيق الله تعالى عصر يوم الأحد السابع عشر من شهر رجب الفرد من سنة ١٣٦٨ هـ غفر الله لي ولوالدى ولمشايخي ولسائر المسلمين ونفعنا ببركات العلماء العاملين .